N! ALL مع جوردان إيزلي

ماذا يقول الكتاب المقدس حقًّا عن الجحيم

السماء > الجحيم | الجزء الثالث | متى ٢٥:٤١-٤٦

مقدمة

إن كان هناك موضوعٌ يشعر معظم المسيحيّين بعدم الارتياح للحديث عنه، فهو الجحيم. عن السماء نستطيع أن نتكلّم في أيّ مكانٍ تقريبًا لأنها تبدو مُعزّية ومملوءة رجاءً، أما الجحيم فمختلف: يُشعرنا بعدم الارتياح، ويتعارض مع الأفكار الحديثة عن التسامح، وحتى داخل الكنيسة يتساءل بعضهم بهدوءٍ إن كان الجحيم ضروريًّا حقًّا أو حتى حقيقيًّا. أتفهّم ذلك، لأنك حين تتكلّم عن الجحيم لا تمسّ اللاهوت فحسب، بل تمسّ المشاعر والحزن وأسئلةً لا يعرف الناس كيف يصوغونها بالكلمات. لكثيرين، عدم الارتياح ليس عدم إيمان؛ بل أنهم يفكّرون في شخصٍ يحبّونه لم يعرف الربّ. فأقولها بوضوح: أنا لا أعظ عن الجحيم لأنني أستمتع بذلك. أعظ به لأنه في الكتاب المقدس ولأن يسوع تكلّم عنه، ولم يتكلّم أحدٌ في كل الكتاب عن الجحيم بوضوحٍ وتكرارٍ أكثر من يسوع نفسه. إن لم نأخذ الجحيم على محمل الجدّ، فلن نأخذ الخلاص على محمل الجدّ، وحينئذٍ يصير الصليب مُربِكًا، وتصير النعمة رخيصة، ويصير الأبد فكرةً هامشيّة.

مثلما هو الحال مع السماء، يحمل معظم الناس أفكارًا عن الجحيم أتت من الأفلام والإعلام والوعظ الرديء، لا من الكتاب، فيجدر أن نُزيل خمسًا منها أولًا. الجحيم ليس مكان لذّة (يصف يسوع الظلمة والبكاء وصريف الأسنان، لا حفلة). إبليس لا يحكم الجحيم (يقول رؤيا ٢٠:١٠ إنه يُطرَح في بحيرة النار ويُعذَّب هناك؛ الجحيم ليس مملكته، بل سجنه). الجحيم ليس مؤقّتًا (يستخدم يسوع الكلمة نفسها «أبديّ» للعذاب وللحياة في متى ٢٥:٤٦، فلا يمكنك تخفيف أحدهما دون تقصير الآخر). الله لا يُسَرّ بالدينونة («حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ، بَلْ بِأَنْ يَرْجِعَ الشِّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا»، حزقيال ٣٣:١١). والجحيم ليس رمزيًّا فحسب (حذّر يسوع منه بإلحاحٍ ووضوحٍ أكبر من أن يكون استعارة). وبعد إزالة هذه، لننتقل إلى ما يقوله الكتاب حقًّا.

النقاط الرئيسية

١. الجحيم حقيقيّ

حين يتكلّم يسوع عن الجحيم، يعامله دائمًا كمكانٍ حقيقيّ، لا استعارةٍ، ولا خرافةٍ، ولا أسلوب ترهيبٍ قديم. من أوضح أقواله متى ٢٥:٤١: «اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ». لاحظ أمرين: الجحيم «مُعَدّ»، وقد أُعِدّ لإبليس وملائكته، ما يعني أنه لم يُصمَّم أصلًا والبشر في الحسبان، بل كان الدينونة النهائيّة لإبليس والشياطين الذين تمرّدوا معه. هؤلاء الشياطين حقيقيّون لكن محدودون: ليسوا في الجحيم بعد (إنه مصيرهم المستقبليّ)، وهم فاعلون في العالم

الآن (يقول أفسس ٦ إن صراعنا مع قوّاتٍ روحيّة)، وهم دائمًا تحت سلطان الله، يرتعدون أمام يسوع ويطيعون أوامره.

لكن مع أن الجحيم لم يُصنَع لنا، ما زال بإمكان الناس أن يختاروه، برفض حكم الله ورفض خلاصه. يُظهر الكتاب مصيرين نهائيّين لكل نفس: «اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِالابْنِ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ بِالابْنِ لَنْ يَرَى حَيَاةً بَلْ يَمْكُثُ عَلَيْهِ غَضَبُ اللهِ» (يوحنا ٣:٣٦). وقال يسوع في متى ١٠:٢٨: «لاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ»، فالجحيم ليس فكرةً روحيّة فحسب، بل مكانٌ حقيقيّ يُدان فيه الجسد والنفس معًا، و«كُلُّ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ» (رؤيا ٢٠:١٥). فأقولها بوضوح: لأن الجحيم حقيقيّ، فالخطيّة خطيرة؛ ولأن الخطيّة خطيرة، فالخلاص ضروريّ؛ ولأن الخلاص ضروريّ، فالصليب هو كل شيء. لا أحد يصل إلى هناك بالصدفة. كما قال سي. إس. لويس، في النهاية هناك نوعان فقط من الناس: من يقول لله «لتكن مشيئتك»، ومن يقول له الله أخيرًا «فليكن كما تريد». الجحيم هو ما يحدث حين يُكرّم الله قرار الإنسان الذي دام مدى الحياة أن يعيش دونه.

٢. الجحيم انفصالٌ عن الله

من أكثر ما قاله يسوع إرهابًا تلك الكلمتان في متى ٢٥:٤١: «اذْهَبُوا عَنِّي». في جوهره، هذا هو الجحيم، انفصالٌ نهائيّ وأبديّ عن يسوع المسيح. «الَّذِينَ سَيُعَاقَبُونَ بِهَلاَكٍ أَبَدِيٍّ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ وَمِنْ مَجْدِ قُوَّتِهِ» (٢ تسالونيكي ١:٩). لاحظ العبارة «مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ». الجحيم ليس ألمًا فحسب؛ بل خسارة، خسارة أعظم شيءٍ في الكون، وهو الله نفسه.

فكّر في هذا: الآن كل إنسانٍ، مؤمنًا كان أم غير مؤمن، يختبر صلاح الله. يسمّيه اللاهوتيّون النعمة العامّة. سواء أحببتَ يسوع أو أنكرتَ وجود الله، تختبر اليوم النور، والمحبّة، والضحك، والجمال، والطعام، ولحظات الفرح، وحتى كبح الشرّ، وكلّها رحمةٌ من الله. لكنّ الكتاب واضحٌ في أن الجحيم وجودٌ بلا تلك النعمة، الغياب الأبديّ لصلاح الله ورحمته وتعزيته ولطفه. لهذا كلمات يسوع مُرعِبة حين يقول «اذْهَبُوا عَنِّي»، لأن الجحيم، في جوهره، انفصالٌ أبديّ عن الوحيد الذي خُلقنا لأجله والوحيد القادر أن يُخلّص.

٣. الجحيم تعبيرٌ عن عدل الله

«وَلكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ غَيْرِ التَّائِبِ، تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَبًا فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتِعْلاَنِ دَيْنُونَةِ اللهِ الْعَادِلَةِ، الَّذِي سَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ» (رومية ٢:٥-٦). يردّد بولس صدى الأمثال، والرسالة بسيطة: الله يرى، والله يعلم، والله سيدين بالعدل. ما يُظهره هذا لنا هو أن الجحيم ليس الله فاقدًا أعصابه، ولا مبالغًا، ولا قاسيًا؛ الجحيم هو الله عادلًا، وذلك جزءٌ من كون الله صالحًا. لو لم يَدِن الله الخطيّة، لما كان صالحًا؛ ولو تغاضى عن الشرّ، لما كان قدّوسًا؛ ولو تهاون مع الظلم، لما كان بارًّا.

نعرف هذا بالفطرة. حين نسمع عن الإساءة والعنف والفساد والاستغلال، يصرخ شيءٌ في داخلنا: «هذا ليس صوابًا، لا بدّ أن يُحاسَب أحدٌ على ذلك»، وهذا لأننا خُلقنا على صورة إلهٍ عادلٍ كاملًا.

فالجحيم يُجيب السؤال: «هل للشرّ أهمّيّة؟ هل للتمرّد على الله أهمّيّة؟»، وجواب الكتاب هو نعم، له أهمّيّة. الجحيم هو الدليل الأخير على أن الله يأخذ الخطيّة على محمل الجدّ. إن كان الله صالحًا حقًّا، فلا بدّ أن يُقاوم الشرّ؛ وإن كان قدّوسًا حقًّا، فلا بدّ أن يدين الخطيّة. الجحيم ليس ظلمًا؛ بل عدل الله مُعلَنًا أخيرًا وكاملًا.

٤. الجحيم نهائيّ

«وَكَمَا وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ الدَّيْنُونَةُ» (عبرانيين ٩:٢٧). ذلك المستقبل القصير يحمل ثقلًا أبديًّا، مُعلِّمًا ما يقوله الكتاب من البداية إلى النهاية: هذه الحياة ليست بروفة، والموت ليس بابًا إلى فرصٍ ثانيةٍ لا تنتهي. «لأَنَّ اللهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَل إِلَى الدَّيْنُونَةِ، عَلَى كُلِّ خَفِيٍّ، إِنْ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا» (جامعة ١٢:١٤)، ويقول دانيال إن كثيرين «يَسْتَيْقِظُونَ، هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ». يُقدّم الكتاب الأبديّة كأمرٍ مُحسوم، فحين تقول عبرانيين «بَعْدَ ذلِكَ الدَّيْنُونَةُ»، تعني أن هناك نقطةً يصير عندها قرار الإنسان بشأن الله نهائيًّا.

لهذا لا يُعطي الكتاب أيّ إشارةٍ إلى توبةٍ بعد الموت؛ الجحيم ليس مكان إعادة نظرٍ ولا تفاوض، بل النتيجة النهائيّة لرفض حكم الله ورفض خلاصه. ولهذا الإلحاح مهمّ: «هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ» (٢ كورنثوس ٦:٢). ليس لاحقًا، ولا يومًا ما، ولا حين تهدأ الأمور، بل الآن، لأن الجحيم حقيقيّ والجحيم نهائيّ. لكن هذه هي البشارة التي تُغيّر كل شيء.

٥. الجحيم يمكن تجنّبه

رسالة الكتاب ليست فقط أن الجحيم حقيقيّ؛ بل أن الله أعدّ طريقًا لينقذك منه. «لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ» (يوحنا ٣:١٧). لم يأتِ يسوع ليصنع الجحيم، بل جاء ليُنقذ الناس منه، وذلك الإنقاذ حدث على الصليب، حيث احتمل الدينونة التي تطلبها خطيّتنا وأخذ ما نستحقّه ليُقدَّم الغفران مجانًا. «لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا» (رومية ٦:٢٣). الأجرة تُكتسَب؛ والهبة تُقبَل. بسبب خطيّتنا اكتسبنا الجحيم، وهذا ما نستحقّه جميعًا، لكنّ نعمة الله هي أن يسوع جاء وأخذ مكاننا، فلستَ مضطرًّا أن تنال ما تستحقّه.

فنعم، الجحيم حقيقيّ، والجحيم عادل، والجحيم نهائيّ، لكنّ الجحيم ليس الخيار الوحيد. ستعيش إلى الأبد في مكانٍ ما، وقد دخل يسوع الدينونة عنك، حاملًا ثقل الخطيّة وفاتحًا باب الخلاص، لكن عليك أن تستجيب. لا تفترض أنك ستنال فرصةً أخرى، ولا تؤجّل الطاعة، ولا تتجاهل التحذير الذي يعطيك إيّاه يسوع بمحبّة. «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي» (يوحنا ١٤:٦). اليوم يمكنك أن ترجع إليه، وتُغفَر لك، ويتغيّر أبدك.

أسئلة للتأمل

1. تكلّم يسوع عن الجحيم أكثر من أيّ أحدٍ في الكتاب، ومع ذلك هو الموضوع الذي نتجنّبه أكثر. لماذا تظنّ ذلك، وكيف يجعل أخذُ الجحيم على محمل الجدّ الصليبَ والنعمة والخلاص أعمق معنًى؟

2. يُوصَف الجحيم بأنه انفصال، «اذهبوا عنّي»، خسارة الله الذي نتمتّع بنعمته العامّة كل يوم. كيف يُغيّر فهمُ الجحيم كخسارةٍ لله (لا مجرّد عقاب) نظرتك إلى ما أنقذك منه يسوع؟

3. «الآن يوم خلاص». هل هناك شخصٌ تحبّه، أم هو أنت، تشعر أن هذه الرسالة عاجلةٌ له؟ ما الخطوة التي يمكنك اتّخاذها هذا الأسبوع، سواء بالاستجابة ليسوع بنفسك أو بتوجيه آخر إليه بمحبّة؟